ناشئُ يطرُق أبوابَ الأدب

طرق الباب على كهنة الفن في رفق وحذر، ثم ألح في الطرق بعنف وجرأة؛ ثم أحس بساعده يكل وبصبره ينفد فهمَّ أن يرجع أدارجة.

كانت كل طرقة على باب المحراب قصيدة أو قصة يرسل بها إلى إدارات الصحف أو دور النشر، ثم يرهف سمعه إلى ما وراء الأبواب فلا يسمع جوابًا منها، لا بنعم ولا بلا.

وأخيرًا قرر في نفسه أن يحاول الوصول إلى مجد الحياة من طريق آخر وبوسيلة أخرى. ولكنه أراد أن يستشيرني قبل أن يمضي هذا القرار ليستنفد كل عذر في هجره الأدب الذي أحبه والعمل الذي اختاره.

زارني منذ أيام ومعه أخوه الأكبر وهو ضابط من ضباط الشرطة يتبين من اهتمامه ومن عروض كلامه أنه يرأف به ويعطف عليه، وقد صحبه إليَّ كما يصحب الصحيح العليل إلى عيادة الطبيب. والواقع أن الفتى كان على حال من الهم واليأس لا يطمئن عليها قلب يحبه. كان مشغوف الفؤاد بشيء اسمه الأدب، لا يفكر إلا فيه، ولا يعمل إلا له، ولا يحلم إلا به، وكانت غاية أمانيه أن يرى اسمه مطبوعًا على كتاب أو منشورًا في مجلة. وهو يعتقد أن مواهبه الفنية تحقق له هذا الأمل، وتدنيه من هذه الغاية، لولا العوائق التي تحجزه عن وجهه وتصده عن هواه. وليست هذه العوائق في رأيه إلا أقطاب الأدب الذين يترفعون من الكبرياء أن يقدموه، وزعماء الصحافة الذين يتمنعون من الأنانية أن يشجعوه. ودعني أقدمه إليك قبل أن أنسى:

هو طالب بمدرسة ثانوية في إحدى مدن القليوبية لا يتجاوز في رأي العين الخامسة عشرة من عمره. دقيق البدن في سهوم، طويل الوجه في رقة، حسن الملامح في عذوبة. ينظر وكأنه لا يرى، ويتكلم وكأنه لا يسمع. إنه شرود الشاعر وذهول الفنان! فإذا جاء حديث الأدب تيقظ وعيه واجتمع تفكيره وقال لك وسمع منك. حدثني عن قصته مع الأدب وكيف أصيب به من إدمان قراءته للقصص والمجلات، فكان على الدوام له في درج الفصل بالمدرسة قصة، وعلى مكتب المذاكرة في البيت مجلة. وكان

لا يعنيه من كتبه وكراساته إلا كتاب الأدب وكراسة الإنشاء حتى نوه معلم اللغة بتقدمه في الكتابة، وقرأ موضوعه على التلاميذ شاهدًا على هذا التقدم. فلما ظفر من المعلم بالنهاية العظمى في موضوع من موضوعاته المدرسية أيقن أنه ارتفع إلى مقام الكتاب المعدودين، ورأى من حقه أن يرسل إلى مجلات بما ينظم من شعر وما يكتب من قصص؛ ولكن إعراض الصحافة عن نتاجه العزيز كان صدمة من خيبة الأمل لم تحتملها أعصابه. أيكون المعلم جاهلاً بمقاييس الفن إلى درجة أن يضع العشرة موضع الصفر؟ إنه متخرج من كلية اللغة العربية بالأزهر فلا يجوز عليه هذا الجهل.

أيكون المعلم قد غشه أو جامله فاستجاد ما كتب وهو رديء؟ إنه كان يقرأ موضوعاته على الفصل فيرضى عنها التلاميذ كل الرضا، ويغتبط هو بها كل الغبطة. لم يبق إذن إلا أن رؤساء التحرير لا يعجبهم العجب أو لا يعنيهم الإنصاف.

ثم أخرج من محفظته كراستين وقدمهما إليَّ وهو يقول في لهجة التأثر المتحدي:

هذا ديوان قصائدي، وهذه مجموعة قصصي أرجو أن تنظر فيهما بعين القاضي لتحكم بيني وبين الأستاذ فلان.

أخذت منه الكراستين، وأخذ هو وأخوه يشربان الشاي، وفتحت أنا ديوان الشعر وقرأت منه مقطوعة، ثم فتحت مجموعة القصص وقرأت منها أقصوصة. وكانت هاتان العينتان كافيتين لأن أعلم منهما كل شيء. علمت أن هذا الفتى قد بذل في سبيل أدبه كل ما يملك من نفسه. بذل له الحب والجهد والوقت والعمل والأمل والمال، ولكنه بخل عليه بشيء واحد هو للأدب كل شيء لم يستعد له بآلته التي لا يكون إلا بها وهي اللغة والمنطق! تعبيره تلفيق من أساليب شتى، فيها الجيد والرديء، وفيها الصواب والخطأ، ومجموعها كالثوب المرقع بأصناف مختلفة من القماش لا تجمعها وحدة من شكل ولا لون ولا جنس. وتفكيره أضغاث من أحلام المراهقة فيها المبالغة والتجوز والشرود والتفكك، وليس في شعره الوحدة التي تربط أجزاء القصيدة، ولا في قصصه الحبكة التي تضم أطراف القصة.

ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن في طبعه استعدادًا للأدب يكمن في ولوعه الشديد باستظهار كل ما يستحسن، ونزوعه القوى إلى التعبير عما يحس. ومن الممكن أن يصل إلى غاية الطريق إذا وجد المرشد.

وكان قد فرغ من الشاي حينما فرغت من القراءة، فرفع بصره إلى يسألني الرأي فيما قرأت. فقلت له في صراحة لا تخلو من مداورة:

إن هناك ولا شك بذرة حية تنمو، وأرضًا زكية تنبت، ولا يعوزها إلا الغذاء والري. ولا أدري لماذا تتعجل الإنتاج وأنت لا تزال على مقاعد الدرس؟ إن لكل شيء أوانه ولكل عمل عدته، والبرعم لا يتفتح عن عطره إلا إذا اكتمل ربيعه. والبلبل لا يطرب بشدوه إلا إذا استوت حنجرته، وإن الذين اتهمتهم بأنهم أعرضوا عنك ولم يشجعوك، قد أحسنوا إليك ولم يخدعوك.

إنك بدأت كما بدأ أكثر الناشئين بالشعر والقصص، وعلة هذا البدء وهم قديم وخديعة فاشية. إنكم تجدون الشعر أيسر الأعمال منالاً ما دمتم تظنون أن مبلغ الأمر فيه تفعيلة توزن وقافية ترص. ترون القصص أسهل الأمور عملاً ما دمتم تحسبون أن قصارى الجهد فيه حكاية تروى وحادثة تسرد. فإذا ما علمتم أن الشعر غير النظم وأن القصة غير (الحدوتة) أدرككم العجز وتولاكم اليأس وانكفأتم راجعين فلا يمضي منكم إلا القليل. تعال نقرأ معًا هذه الأقصوصة.

وأخذ الفتى يقرأ وأنا وأخوه نسمع. وكنت أريه في كل فقرة أو صورة خطأ اللفظ أو خطل المعنى أو ضعف التأليف أو اضطراب السياق، أو سوء الاستطراد أو نفور الملائمة أو غموض العبارة، حتى إذا بلغ نهاية الحكاية كان قد اقتنع بأنه جهل حقيقة نفسه وأخطأ تقدير عمله، وعزم أن يبدأ من الأول لا من الآخر. ورغب إلى أن أرسم له الخطة وأبين الوسيلة وأن ألقاه الحين بعد الحين لأرى إن كان على الطريق. فقلت له. الآن يا بني بدأت. وستجدني عندما يرضيك، إما بالمقابلة وإما بالمراسلة، أما الخطة والوسيلة فأمرها أبين من أن يبين !.

ادرس لغتك حق الدرس، وأتقن بجانبها الإنجليزية أو الفرنسية، ثم اقرأ فيهما أدب الناس في القديم والحديث. ثم اختر لنفسك من كل أدب صفوة أقطابه فتعمق في

أدبهم، وسر في طريقك على ضوئهم، ثم اطلع، وابحث، وفكر، وتأمل، ولاحظ، وسجل، حتى إذا امتلأ ذهنك وبلغ حد الفيض فاكتب.

وستسمع الأدباء يخوضون في حديث المذاهب الأدبية الأوروبية فيذكرون الاتباعية والابتداعية والواقعية والطبيعية والرمزية والوجودية، والأدب الملتزم والمحايد، والفن للفن، والفن للحياة. فأصغ إليهم بسمعك وأعرض عنهم بقلبك. ليس هذا الذي يقولون من شأن الكاتب، إنما هو من شأن النقاد ومؤرخي الأدب وأئمة البيان: يصنفون أعمال الكتاب والشعراء، ويدرجون كل صنف تحت اسم من هذه الأسماء. لا تمد في طريقك الأدبي سكة من الحديد تسير على قضبانها كما يسير القطار فلا تخرج عنها إلا لتنقلب. نزه قلمك عن الرمزية والوجودية والسريانية، ثم تقلب في المذاهب الأخرى كيف تشاء. خذ من كل مذهب خير ما فيه، ثم غص في أعماق نفسك فاعرفها تعرف الناس. وطر في آفاق الطبيعة فادرسها تدرس الحياة. والنفس والمجتمع والطبيعة هي المجالات الحيوية للأدب الحق. ومن العسير الفصل بينها فتجعل الأدب تارة موضوعيًا كالاتباعيين (الكلاسكيين)، وتارة ذاتيًا كالابتداعيين (الرومانسيين) فإن الفن كما قال (زولا): هو الطبيعة يراها الفنان من خلال مزاجه.

وفي هذه الحالات الثلاثة، ومن القواعد المقررة للأدب في المذاهب المعتدلة، تستطيع أن تذهب بنفسك مذهبًا شعاره: فكر بقلبك، واشعر بعقلك، وأدرك بخيالك. وهو مذهب تتساير فيه الفكرة والعاطفة والخيال، فتأمن عليه برود العقل وضلال القلب وجموح المخيلة.

هذه يا بني رءوس المسائل في موضوع الأدب، أو لافتات المرور في طريق الفن. وسأفصل لك ما أجملت منها في كل زيارة تؤديها إليَّ، وفي كل رسالة أكتبها إليك.

فقال الفتى وهو يعيد كراستيه إلى محفظته: أعدك أني سأتخذ مما قلت مذهبًا أقفو فيه أثرك وأقصد قصدك.

فقلت له ويدي في يده: وأنا أعدك أن أصلح بينك وبين الأستاذ فلان إذا أنجزت وعدك.